تأسيس مساجد بلاد الشام
خلال القرن الاول الهجري

أ.د. محمد كريم ابراهيم الشمري
كلية التربية للعلوم الانسانية /جامعة بابل
Mohammedkihn60@gmail.com

الخلاصة:

يتناول البحث دراسة للمساجد التي بنيت في بلاد الشام خلال العصر الراشدي وأبرزها المسجد الأقصى في مدينة القدس فقد تناول البحث دراسة مكانته المتميزة وأبرز الإضافات والتجديدات التي أنجزت خلال القرن الأول الهجري من قبل الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية خصوصاً إنجازات الخليفة عبد الملك بن مروان في المسجد الأقصى وقبة الصخرة، كما تناول البحث دراسة مفصلة عن الجامع الأموي في دمشق بعد تحريرها من السيطرة البيزنطية سنة ١٤هـ، وأبرز التطورات التي طرأت على المسجد والنفقات المصروفة على الأعمال العمرانية والفنية، وكانت الدراسة الثالثة عن المسجد الجامع في حلب، وأوضح البحث مهام ووظائف هذه المساجد ودورها الديني والاجتماعي والعلمي وأثرها في الحركة الفكرية.

الكلمات المفتاحية: المساجد؛ بلاد الشام؛ القرن الأول الهجري.

The Masjids of the Levant
during the First Hijri Century

Prof. Dr. Muhammad Karim Ibrahim al-Shammari
College of Arts / University of Babylon
Mohammedkihn60@gmail.com

Abstract:

This research studies the masjids which were built in the Levant during the era of the Orthodox Caliphate. The research focuses on Al-aqsa Mosque as it examines its unique status and the prominent extensions and renovations that were executed at that era by both the Orthodox Caliphs and the Umayyad Caliphs. In this regard, the accomplishments of Abed Al-Malek Ibn Marwan, the Umayyad Caliph, are studied meticulously. The research elaborately studies the Umayyad Mosque in Damascus with special reference to the developments that occurred after liberating the city form the Byzantine rule. It also touches on the subsidies which were spent on the constructional and architectural works. The third study is about Al-Masjid Al-Jami' in Halab (the Congregational Mosque in Aleppo). In addition, the research demonstrates the functions of masjids, their religious, social, and scientific roles, and their impact on the intellectual movement.

Keywords: the masjids**; the Levant; the First Hijri Century.**

١.المسجد الأقصى:

للمسجد الأقصى مكانة متميزة لدى المسلمين ، فإليه اتجهوا في صلاتهم قبل تحويل القبلة منه إلى مكة المكرمة ، واليه أسرى النبي محمد (ﷺ) ليلة الإسراء والمعراج [١] ، والى ذلك أشار القرآن الكريم [٢] ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : ((سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع العليم)) .

حرر المسلمون بيت المقدس سنة ١٦هـ وقيل ١٧هـ ، بعد أن اتجه عمرو بن العاص محاصراً لها، فأدرك بطريق القدس صفرونيوس أن الفتح أمر واقع لا محالة ، ونتيجة لذلك وبسبب طول أمد الحصار المضروب على مدينة القدس ، ولأجل تحقيق الأمان لأهلها ؛ طلب صفرونيوس من عمرو بن العاص الصلح ، شريطة أن يتولى الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عقده ، فكتب أبو عبيدة إلى الخليفة عمر (رضي الله عنه) بذلك وهو بالشام ، فقدم الخليفة ونزل الجابية من دمشق ثم وصل إلى القدس ، وعقد الصلح مع أهلها ، وكتب لهم بذلك عهداً ، وتم تحرير القدس سنة ١٧هـ ، وللمؤرخين اختلافات في ذلك ، لكن يتضح لنا أن القيادة كانت لأبي عبيدة في تحرير القدس وان عمرو بن العاص الذي كان محاصراً للقدس انضم تحت قيادته [٣] .

ولعل الغرض من موافقة الخليفة عمر (رضي الله عنه) على التوجه إلى بيت المقدس تنفيذاً لطلب البطريق صفرونيوس ؛ لأجل الاحتفال بالتحرير وإضفاء صفة الشرعية على الصلح الذي عقد بين المسلمين وأهل المدينة ، وإكسابه صفة الالتزام الذي زاد من معنويات أهل القدس ؛ لأن خليفة المسلمين شرَّفهم بدخول مدينتهم وتوقيعه على شروط الصلح معهم،فضلاً عن تقرير حالة المغلوبين والتشاور مع أمير الجيش أبي عبيدة حول هذه الأمور وإشاعة حالة الأمن والاستقرار في المدينة ؛ بهدف وضع الترتيبات اللازمة لإدارة هذه المدينة المقدسة وحكمها بعد أن أصبحت تحت سيطرة المسلمين ، وبعد تسليم المدينة لهم بدخول الخليفة عمر (رضي الله عنه) ؛ طاف بطريق القدس به في أنحائها ماراً بالأماكن المقدسة المنتشرة فيها [٤].

كان لمظهر الخليفة المتواضع وقع كبير في نفس البطريق صفرونيوس ، مما ولَّد شعوراً في نفسه بالاطمئنان ، وتبع تلك الجولة سجود الخليفة عمر (رضي الله عنه) في بيت المقدس جاعلاً قبلته صدر المحراب ، ثم أقام مصلاه إلى كنيسة كانت الروم قد دفنت بها((بيت المقدس)) في عصر بني إسرائيل ، فلمّا سيطروا عليها أبرزوا بعضها وتركوا البقية ،وقال: يا أيها الناس اصنعوا كما أصنع ، وجثا في فرج من فروج قبائه ينقي المسجد منها [٥] .

وبخصوص أصل بناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، يقال أن داوود الحكيم اشترى أرضاً فبنى فيها مذبحاً للرب ، وفي الموضع نفسه بنى سليمان الهيكل بعد ذلك ، ويسمى الآن موضع الهيكل القديم بـ: الحرم الشريف ، وفي وسطه مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى إلى الجنوب منه ، وقيل أن سليمان بنى البيت المقدس على أساس قديم ، كان أسسه سام بن نوح ، وقيل : بيت المقدس بنته الأنبياء وعمرته الأنبياء ، وليس فيه موضع بشر إلا وقد سجد فيه نبي ، وهو أول مسجد وضع في الأرض بعد المسجد الحرام بأربعين سنة [٦].

أورد الزركشي [٧] للمسجد الأقصى سبع عشرة إسماً ، والملاحظ انه لم يميز في هذه الأسماء بين أسماء المدينة وتلك التي أُطلقت على المسجد ، مما أوقعه في دائرة الخلط بينهما ، وهذه الأسماء هي : المسجد الأقصى ، مسجد إيلياء ، بيت المقدس (أي المكان الذي يطهر فيه من الذنوب ؛ والمقدس المُطهر، ومنه القَدَس) ، البيت المقدس ، بيت القُدْس ، سلَّم (بتشديد اللام ، لكثرة سلام الملائكة فيه) ، أوُرشَلِم ، كورة إليا ، أورشليم ، بيت إيل ، صِهيون ، مصروث ، بابوش ، كورشيلا ، شليم ، أزيل ، صلمون ، ثم يقول : ((ذكر هذه الأسماء الحُسين بن خالويه إلا ثلاثة: بيت المقدس . وبيت القدس .ومسجد إيليا)).

يضم الحرم القدسي الشريف كلاً من : مسجد عمر والمسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة ، والمسجد الأقصى هوالمسجد الرئيسي في الحرم ، وقد بُنيَ غرب مسجد عمر محاذياً له ، وهو يشبه في

تنظيمه الداخلي الجامع الأموي في دمشق ، بُنيَ بعد البيت الحرام في مكة ، وكان أول القبلتين حال الابتداء ، ومن صخرته المقدسة المعراج ، حيث عُرِجَ بخاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام [٨].

أمّا مسجد عمر فهو مسجد بسيط يقوم عند الطرف الشرقي من الحرم في المكان الذي صلّى فيه الخليفة عمر بن الخطاب (ﷺ) عندما تسلّم القدس من البطريق صفرونيوس [٩] ، وتدعى قبة الصخرة أحياناً : جامع عمر ، ويعد من أقدم الآثار الإسلامية الماثلة للعيان الذي يعكس الفن العربي الإسلامي في العمران ، وعده المؤرخون والآثاريون الأجانب أول عمل فني رائع للحضارة الإسلامية [١٠] .

وبخصوص مسجد الصخرة ، فهو بناء صغير نسبياً مثمن تعلوه قبة كبيرة ، وكان أول المساجد التي ظهرت في العالم الإسلامي بنموذج جديد من البناء يختلف عن بساطة المساجد الأولى وزهدها ، ويذكر أن الصخرة كانت موجودة في عهد الخلافة الراشدة ومن بعدهم في عهود معاوية وابنه يزيد ومروان بن الحكم مكشوفة لم تكن لها قبة ولا سور ، وكانت موضعاً مقدساً لليهود وبعض النصارى ، حتى ذكر بعضهم أنها كانت مهد عيسى (عليه السلام) وغير ذلك من الادعاءات البعيدة عن الصواب [١١] .

في خلافة عبد الملك بن مروان وصلت القدس أوج عزها وتقدمها عندما ابتنى فيها قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، إذ أراد عبد الملك أن يبني قبة على الصخرة المقدسة التي وقف عليها إبراهيم (عليه السلام) ، ووضع النبي محمد (ﷺ) عليها مقدمهِ ليلة الإسراء والمعراج ؛ ليكون البناء ملائماً ومكانة هذا المكان المقدس لدى المسلمين .

كانت الخطوة الأولى قبل الشروع ببناء القبة على الصخرة الشريفة سنة ٦٦هـ ، فقد أرسل الكتب إلى جميع عماله والى سائر الأمصار يخبرهم انه يريد بناء قبة على صخرة بيت المقدس لتقي المسلمين الحر والبرد وان يبني المسجد الأقصى ، ووردت الإجابة إليه من سائر عمال الأمصار بقولهم : ((نرى رأي أمير المؤمنين موافقاً ورشيداً إن شاء الله يتم له ما نوى من بناء بيته وصخرته ومسجده ، ويجري ذلك على يديه ، ويجعله تذكرة له ولمن مضى من سلفه))[١٢].

بدأ البناء سنة ٦٦هـ ، بعد أن جمع عبد الملك الصُناع لذلك وأرصد للعمارة مالاً كثيراً وضعه في القبة الكائنة أمام الصخرة من جهة الشرق بعد أن أمر ببنائها من جهة الزيتون ، ووكل أبا المقدام رجاء بن حياة [١٣] ويزيد بن سلام [١٤] وولديه الإشراف على الإنفاق في هذا العمل ، ورغبة في إتقان العمل وتوجيهه الوجهة التي يريد ، قدم عبد الملك للصناع وصفاً لما يريد أن تكون عليه تفاصيل عمارة القبة ، فصنعوا له قبة صغيرة هي التي تقع شرقي قبة الصخرة ، يقال لها ((قبة السلسلة)) أعجبه شكلها ، فأمر ببناء قبة للصخرة على نفس هيأة قبة السلسلة [١٥] .

وتنفيذاً لأوامر الخليفة عبد الملك بدأ الصُناع بالعمل في القبة من شرق المسجد إلى غربه ، من السور الذي عند مهد عيسى (عليه السلام) ، وهو المكان الذي يعرف الآن بـ: جامع المغاربة ، حتى أكملوا العمل وفرغ البناء ، فكتب رجاء ويزيد بن سلام إلى عبد الملك بدمشق بذلك ،وكان الانتهاء من عمارة قبة الصخرة والمسجد الأقصى في سنة ٧٣هـ [١٦] .

ذكر المؤرخون وعلماء الآثار أن عبد الملك بن مروان شَّيد مسجداً بالقرب من قبة الصخرة في القسم الجنوبي من الحرم الشريف ببيت المقدس ، في مكان لعله كان موقع كنيسة قديمة ، وأطلق الأهالي عليه اسم : المسجد الأقصى ، كما يُطلق هذا الاسم أيضاً على جميع الأبنية المقدسة في البقعة المعروفة بـ:الحرم الشريف التي تتمتع بأهمية دينية تلي حرم مكة وحرم المدينة؛ لذلك عُرفت بـ: ثالث الحرمين[١٧] .

بعد اكتمال البناء الأساسي أمر عبد الملك بتعليق ستور الديباج على قبة الصخرة ، وأقام لها سدنةً، واخذ الناس بالطواف حولها كما تطوف حول الكعبة [١٨] ، وبنى حولها سوراً مستديراً وحوله رواق دائري ، بنيت فوقه قبة محمولة على (١٦) قوساً ترتكز على أربعة دعائم و (١٢) سارية ، ويقوم المسجد الأقصى على نفس الهضبة التي بنيت عليها قبة الصخرة [١٩] .

سارع رجاء بن حياة ويزيد بن سلام المشرفَين على البناء بأن حّفا الصخرة بدرابزين ساسم ومن خلف الدرابزين ستور الديباج المرخاة بين العُمَد ، كما شهدا تعطير المسجد الأقصى كل يوم اثنين وخميس وسراجة المسجد التي كانت باللبان المديني والزنبق الرصاصي [٢٠] .

يمكننا إيراد وصف للمسجد الأقصى وقبة الصخرة في عهد عبد الملك بن مروان بعد اكتمال بنائه، فكان للمسجد سقف خشبي سوى أعمدة خشب ستة آلاف خشبة ، وفيه من الأبواب خمسين باباً ، منها : باب داود ، باب سليمان ، باب حطة ، باب محمد ، باب التوبة ، باب الرحمة ، أبواب الأسباط الستة ، باب الوليد ، باب الهاشمي ، باب الخضر وباب السكينة ، وكان فيه من العُمَد ستمائة عمود من رخام ، وفيه من المحاريب سبعة ، ومن السلاسل للقناديل(٣٨٥) سلسلة ، منها (٢٣٠) سلسلة في المسجد الأقصى والباقي في قبة الصخرة الشريفة ، وفيه من القباب (١٥) قبة عدا قبة الصخرة [٢١] .

يُلاحظ من وصف المسجد الأقصى مقدار النفقات الكبيرة التي أُنفقت على مرافقه وزينته ، والمُلاحظ أن قبة الصخرة جُعِلت ضمن المسجد الأقصى عندما ورد ذكر عدد قباب المسجد الأقصى ، في حين أن الأخير بناء مستقل وكذلك أمر قبة الصخرة .

جعل عبد الملك للمسجد الأقصى خدماً وقواماً بلغ عددهم ثلاثمائة رجل أخذوا يتوارثون المهمة ، وفيه من الصهاريج المخصصة لخزن المياه (٢٤) صهريجاً ، وفيه من المنابر أربعة،ثلاثة منها في صف واحد غربي المسجد وواحدة على باب الأسباط [٢٢] .

أما قبة الصخرة فتقع على منصة اصطناعية تقع تقريباً وسط الحرم الشريف في بيت المقدس، والمسجد الأقصى هو بيت المقدس ، وقد وصف المؤرخون والجغرافيون العرب المسلمين وجود المصلى بمسجد بيت المقدس ، الذي يُخطب عليه أيام الجُمع ، وكان في غاية الحسن والمتانة ، مبني على أعمدة رخام ملونة ومزخرفة بالفسيفساء الذي لا يوجد مثلها شبيه ، وفي وسط صحن هذا الموضع مصطبة عظيمة في الارتفاع يصعد إليها الناس بدرج وفي وسط هذه المصطبة قبة عظيمة تقوم على أعمدة رخام مسقفة برصاص ومُنمقة بزخارف من الخارج والداخل وهي مُطبقة بالرُخام الملون ، وتقوم قبة الصخرة وسط هذا الرُخام ، وتحت القبة تقع مغارة يُنزل إليها بسلالم مبلطة أيضاً بالرُخام ، ولهذه القبة أربعة أبواب، وتقع إلى الشرق منها قبة أخرى قائمة على أعمدة مكشوفة هي قبة (المعراج) وقبة النبي داود (عليه السلام) .

وقبة الصخرة وسط دكة مربعة تقوم على بيت مثمن بأربعة أبواب ، يقابل كل باب منها رواق والأبواب مثمنة ، وبُني على كل باب صُفة مرخمة وعلى أبواب الصُـّفات أبواب أيضاً ، والقبة كانت عالية تبلغ المائة ذراع وتُرى من بعيد ، وهي عظيمة ملبسة بالصفر المُذهب وتقع على ثلاث سافات : الأولى مروقة على الألواح والثانية من أعمدة الحديد والثالثة من خشب عليها الصفائح ، وفي وسطها طريق يصعد منه الصانع لتفقدها ، فإذا بزغت عليها الشمس أشرقت القبة وتلألأت ؛ لذلك يقول كل من يزورها انه لم يرَ في الإسلام مثلها . أما حجم الصخرة فيُقدر بثلاثة وثلاثين ذراعاً في سبع وعشرين ذراعاً ، وتقع تحت الصخرة مغارة تُزار ويُصلى فيها ، تستوعب ١٦٠ مصلياً ، أما ارتفاع الصخرة عن الأرض فيتراوح بين متر ومترين [٢٣] .

توفي الخليفة عبد الملك بن مروان في مدينة دمشق سنة ٨٦هـ ، وتولى ابنه الوليد الخلافة من بعده، فاهتم الخليفة الجديد بما بدأه والده في المسجد الأقصى ، في الوقت نفسه الذي كان يبني فيه المسجد الأموي وقصر الخلافة في دمشق ، فقد طلب إحضار بعض الرجال للعمل في بناء ((جامع بيت المقدس)) وحدد أجورهم لمدة ستة اشهر ، ولعل اهتمام الوليد بهذا الأمر يتضح بشكل أكثر من خلال الاطلاع على الكتب المتبادلة بينه وبين عماله حول هذا البناء في بيت المقدس ودمشق [٢٤] ، خصوصاً وان الجزء الشرقي من المسجد الأقصى قد انهدم أيام الوليد ، فأمر بالإنفاق على ما تهدم [٢٥].

ولما تولى سليمان بن عبد الملك الخلافة بعد وفاة أخيه الوليد سنة ٩٦هـ ، جاء إلى بيت المقدس ، وأتته الوفود مبايعة له ، وكان يجلس في قبة في صحن مسجد بيت المقدس مما يلي الصخرة ، ولعلها القبة

المعروفة بـ: قبة سليمان ، وبسطت البسط بين يدي قبته وعليها النمارق والكراسي والوسائد ، والى جانبه الأموال وكُتّاب الدواوين ، وقد همّ بالإقامة ببيت المقدس واتخاذه منزلاً ، فجمع الأموال والناس بها لفترة من الزمن [٢٦] .

نستنتج مما سبق مدى اهتمام الخلفاء الأمويين ببيت المقدس وتعلقهم العظيم ببناء المسجد الأقصى، ولكن يلاحظ على عهد سليمان بن عبد الملك أن المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، لم يشهدا أي عمران أو إضافة في البناء أو الزخرفة ، وهذه الملاحظة نفسها تسري على عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ٩٩-١٠١ هـ ،الذي اكتفى بطرد الخدم اليهود الذين كانوا مكلفين بسراجة بيت المقدس[٢٧] ، ولعل تفسير ذلك يندرج في إطار تدينه واهتمامه بالأماكن الإسلامية المقدسة ،وحصر خدماتها على المسلمين تعظيماً وتكريماً لها.

وبعد مدة من الزمن ليست بالقصيرة كتب ابن بطوطة [٢٨] وصفاً لكل من المسجد الأقصى وقبة الصخرة ،أشاد فيه بطريقة البناء ودقته ، وأعرب عن إعجابه بعظمة ذلك البناء والجهود الكبيرة التي بذلت في انجازهما .

أما بالنسبة للجانب الوظيفي للمسجد الأقصى وقبة الصخرة ، فيلاحظ أن الجانب العبادي كان هو السائد على غيره من الجوانب الوظيفية الأخرى ، اللهم إلا اتخاذ سليمان بن عبد الملك المسجد الأقصى مقراً له ولإدارته ـ كما ذكرنا ـ لفترة من الزمن في بداية توليه الخلافة.

٢.الجامع الأموي الكبير في دمشق:

حرر المسلمون دمشق سنة ١٤هـ بعد إحكام الحصار عليها لعدة أشهر[٢٩] ، أما بخصوص بناء مسجد دمشق فيرجح انه أقيم في موضع معبد وثني قديم يسمى : معبد جوبيتير يعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد ، وقد حوّل هذا المعبد في أواخر القرن الرابع الميلادي إلى كنيسة القديس يوحنا المعمدان [٣٠] .

لما حرر المسلمون مدينة دمشق في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (ﷺ) ، دخل أمير الجيش أبو عبيدة بن الجراح مدينة دمشق من باب الجابية في الجانب الغربي منها صلحاً ، بينما دخلها خالد بن الوليد بالسيف من بابها الشرقي ، فالتقيا بالزياتين ، وبذلك أصبحت دمشق قسمين والكنيسة كذلك ، فاتخذ المسلمون نصف الكنيسة الشرقي المفتوح عنوة مسجداً يصلون فيه والنصارى يصلون في النصف الآخر [٣١] .

بعد تولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة أراد أن يضيف كنيسة يوحنا في المسجد بدمشق ، فرفض النصارى ذلك وتوقف في فكرته ، ثم طلبها عبد الملك بن مروان في أيامه للزيادة في المسجد ، وبذل النصارى ما بُذل من الأموال فرفضوا رفضاً قاطعاً تسليمها له ، ولما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة ، جمع النصارى وبذل لهم مالاً عظيماً مقابل تنازلهم عنها فرفضوا ذلك ، لكنه هددهم في حالة عدم الاستجابة لمطالبه بهدمها ، وعلى الرغم من أن بعض النصارى أرادوا تخويف الوليد بان من هَدَم الكنيسة يُصاب بجنون وعاهة ، إلا أن هذا القول أثار غضبه ، فدعا بمعول وجعل يهدم بعض جدرانها بيده وعليه قباء خز اصفر ، ثم جمع العمال والنقّاضين فهدموها وأدخلها في المسجد [٣٢] .

كان هدفنا من عرض هذه المعلومات بيان كيفية تأسيس جامع دمشق منذ خلافة عمر بن الخطاب (ﷺ) والتطورات اللاحقة بعد ذلك ، وبصورة خاصة في العصر الأموي منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان ، إذ كان المسجد موجوداً في عهده ، لكن الزيادات استمرت في الإضافة عليه ، ولعل أبرز مظاهر هذه الزيادة تتمثل في بناء المقصورة التي أمر معاوية بإضافتها إلى المسجد ، اثر محاولة الخوارج تنفيذ عملية اغتياله ، وكانت المقصورة ترتبط بسرب مع قصر الخضراء الملاصق للمسجد ، وهو القصر المخصص لإقامة معاوية [٣٣] .

على أننا يجب أن نؤكد الدور المتميز لأبي عبيدة عامر بن الجراح في وضع اللبنات الأولى لمسجد دمشق ، إذ يرجع إليه الفضل في وضع تخطيط ذلك المسجد ، الذي كان بلا شك على طراز

المساجد الإسلامية الأولى ، صحن في الوسط تحيط بها ثلاث جهات أروقة تحملها أعمدة ، أما الحرم فيوجد في الجهة الجنوبية [٣٤] .

يمثل عهد الوليد بن عبد الملك ٨٦-٩٦هـ منعطفاً متميزاً في تطور بناء الجامع الأموي في دمشق، وقد اشرنا إلى كيفية إقدامه على توسيع مساحة الجامع بإضافة كنيسة القديس يوحنا المعمدان إليه ، على الرغم من معارضة النصارى لهذه الخطوة ، ولعل الوليد بعمله هذا كان مدفوعاً بدوافع عديدة ، من أهمها انه كان مغرماً بالعمارة والهندسة [٣٥] ، وأدرك أن مساحة المسجد أصبحت لا تكفي المصلين بعد تزايد أعداد الداخلين في الإسلام ، فضلاً عن تطور شؤون الحياة وتقدمها وتدفق الأموال الكثيرة على الدولة العربية الإسلامية [٣٦] ، ونرجح أن الوليد ربما أراد تخليد ذكراه من خلال بناء المسجد الأموي لمباهاة أمراء العرب وملوك الروم المجاورين له، ذكر جلوب [٣٧] ارتباط ذكرى الوليد بما شهده مسجد دمشق العظيم في عهده من توسع وزخرف في البناء ، إذ فاق الوليد معظم خلفاء بني أمية بشأن الاهتمام بعاصمتهم دمشق ، فحقق في هذا المجال أكثر مما حققه غيره .

روى ابن عساكر [٣٨] أن الوليد بن عبد الملك تفاوض مع النصارى حول توسيع مساحة المسجد الجامع في دمشق ، وذلك بإضافة ما تبقى من كنيسة يوحنا في الجانب الشرقي من دمشق، مقابل أن يسمح لهم ببناء كنيسة في أي مكان يرغبون في دمشق ، وتم الاتفاق بهذا الصدد بالرجوع إلى العهد الذي أعطاه خالد بن الوليد لأهل دمشق [٣٩] بعد دخولها من بابها الشرقي (باب الجابية) عنوةً ، وكان من ضمنها كنيسة توما ، إذ طلب الوليد هدم هذه الكنيسة التي كانت اكبر من الكنيسة الداخلة التي أخذت صلحاً ، وتم هدم الكنيسة في أول خلافة الوليد سنة ٨٦هـ ، وبدأ الشروع في البناء سنة ٨٧هـ ، وقيل انه استمر سبع سنوات فمات الوليد ولم يتم البناء ، في حين روى البلاذري [٤٠] انه يوجد في مسجد دمشق مما يلي المئذنة كتاب في رخامة : مما أمر ببنيانه أمير المؤمنين الوليد سنة ست وثمانين (٨٦هـ) .

بعد أن اتخذ الوليد بن عبد الملك قراره بالشروع في بناء الجامع الأموي في دمشق، بدأ الشروع في العمل سنة ٨٧ هـ [٤١] ،وفي تلك السنة أيضاً تم تعيين عمر بن عبد العزيز والياً على المدينة المنورة وابتدأ العمل بجامع دمشق الذي استمر أكثر من عشر سنين ، عمل فيه اثنا عشر ألف صانع [٤٢] .

استدعى العمل في بناء الجامع الأموي الاستعانة بعدد كبير من العمال ،إضافة إلى العمال العرب الذين كانوا من المصريين بشكل خاص [٤٣] ، روى ابن عساكر [٤٤] أن الوليد بن عبد الملك أراد بناء مسجد دمشق فاحتاج إلى صناع كثيرين ، وكتب إلى الطاغية (ملك الروم) : ((وَجِهْ إليَّ بمائة صانع من صناع الروم فإني أريد أن ابني مسجداً لم يبنِ من مضى قبلي ولا يكون بعدي مثله فإن أنت لم تفعل غزوتك بالجيوش وخربت الكنائس التي في بلدي وكنيسة بيت المقدس وكنيسة الرها وسائر آثار الروم))، وقد حاول ملك الروم المماطلة والتأخير في الاستجابة لطلب الوليد ؛ بقصد إضعاف عزيمته عن تنفيذ مشروعه ، لكنه استجاب أخيراً لطلبه .

إن الاستعانة بمائة صانع من صناع الروم توضح لنا حاجة الوليد إلى صناع ماهرين متخصصين تخصصاً دقيقاً في طريقة البناء أو الهندسة الخاصة بجامع دمشق ، أو ربما تخصصهم في أمور فنية دقيقة من الزخرفة والنقوش والتلوين ، وهذا الأمر ينطبق أيضاً على الصناع المصريين الذين استعان بهم عند الشروع ببناء الجامع ، ويتضح لنا أن الوليد كان مصمماً على بناء جامع فريد من نوعه في الهندسة والبناء ؛ ليكون مفخرة له يخلد ذكراه حين ذكر في كتابه إلى ملك الروم انه سيبني مسجداً لم يُبنَ من قبل ولا يكون مثله من بعده ، لذا عملت أعداد كبيرة من العمال والصناع في انجاز هذا الصرح الحضاري العظيم، قُدِّر عددهم – كما ذكرنا – باثني عشر ألف صانع ، إذ أراد الوليد أن يكون الجامع الأموي في دمشق من أبدع العمائر الأموية ، ومن اجّل وأعظم ما بني في عصره ، ففيه آيات للفن العربي البديع وفيه معانٍ لعظمة العرب وتفوقهم وغلبتهم في الميادين كافة [٤٥] ، وقيل أن العمل استمر أكثر من عشر سنين [٤٦] ، وأن البدء في بناء الجامع الأموي كان سنة ٨٨ هـ ، واستمر البناء تسع سنوات [٤٧].

أما بخصوص تخطيط وشكل بناء الجامع ، فهنالك روايات عديدة ومختلفة أوردها المؤرخون ، وقد ناقش الوليد الصُناع بما أراد أن تكون عليه صورته ، ويبدو أنهم اختلفوا معه حول طريقة البناء ، روى ابن عساكر [٤٨] أن الوليد ترك مسألة هدم كنيسة مار يوحنا التي أراد إضافتها عند بناء المسجد الجامع ، واكتفى بهدم كنيسة توما وبناء المسجد عليها ؛ لأنها لم تكن داخلة في العهد الذي أعطاه المسلمون لأهل دمشق بعد تحريرها ، وبعد هدم تلك الكنيسة ، أراد الوليد أن يبني المسجد اسطوانات إلى الكُوى يعني الطاقات ، فدخل بعض البنائين ورفضوا هذه الفكرة بقولهم : ((لا ينبغي أن يُبنى هكذا ولكن ينبغي أن يُبنى فيه قناطر ، ويعقد بعضها إلى بعض، ثم تُجعل أساطين ويُجعل لها عُمَد ، ويُجعل فوق العُمد قناطر تحمل السقف ويخف عن العُمد البناء ، ويُجعل بين كل عمودين ركن، فبني كذلك))، وزاد من ناحية شرق المسجد المقصورة كلها من كنيستهم .

وفيما يتعلق بتخطيط المسجد ، فانه مستطيل التخطيط ، طوله ١٥٧م وعرضه ١٠٠م ، ويشغل إيوان القبلة [٤٩] القسم الأعظم من الجهة الجنوبية ، طوله ١٣٦م وعرضه ٣٧م ، واتخذت الناحيتان الغربية والشرقية للوضوء والصلاة المنفردة ، وهناك الصحن الرحب الذي تحيط به الاورقة من الشرق والشمال والغرب .

انفق الوليد بن عبد الملك على بناء الجامع الأموي في دمشق خراج دولته لعدة سنين ، فأصبح درّة العمارة ، وعرف بـ : جامع المحاسن كامل الغرائب [٥٠] ، وقد أطنب المؤرخون في وصفه وذكروا فضائله وإعجابهم به [٥١] ، فقيل: ((انه بكر الدهر ونادرة الوقت وأعجوبة الزمان وغريبة الأوقات)) [٥٢]، وعرف بأنه : مسجد بني أمية ، أو: مسجد الوليد [٥٣] .

ونظراً لفخامة هذا المسجد ودقة العمل فيه التي استغرقت سنوات عديدة ، فان تكاليفه كانت باهظة جداً ، فقد أُنفقت عليه الأموال الطائلة ، وصُرفت موارد الدولة الأموية عليه خلال سنوات بنائه ، فقيل أن الوليد انفق على بناء هذا المسجد خراج (موارد) الدولة لسبع سنين ، وقيل أن حساب ما انفق عليه قد حُمل على ثمانية عشر بعيراً ، فأمر الوليد بإحراق الحساب ولم ينظر فيه، وقال : ((هو شيء آخر جناه لله فلم نتبعه)) ، وقيل أيضاً أن الوليد أنفق أربعمائة صندوق ، في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار (أي ما مجموعه : ١١,٢٠٠,٠٠٠ ديناراً) .

وعلى الرغم من الاختلافات في تحديد نفقات بناء المسجد الجامع في دمشق ، إلا أن هذه النفقات كانت عالية جداً [٥٤] ، وتثير التساؤل ، ومع ذلك فان الأرقام عرضة للتصحيف والمبالغة.

والحق أن النفقات التي أنفقت على بناء هذا المسجد لا تكاد تُذكر بجانب هذا الفخر للعرب، وبجانب هذه العظمة المتميزة في العمارة والفنون ، وعلى الرغم من هذه النفقات الباهظة، فان المصادر تذكر أن الوليد لم يظلم أحداً ولم يغبن عاملاً في أجر ، ويقال: ((ما تم مسجد دمشق إلا بأداء الأمانة)) ، وهذه الأمانة تتمثل في إخلاص العمال لعملهم وحرصهم على تقليص النفقات [٥٥] .

وقيل أن الوليد توفي ولم يكتمل بناء المسجد الجامع في دمشق ؛ لأن البناء بدأ سنة ٨٧هـ ، واستمر سبع سنين ، ومات الوليد ولم يتمه فأتمه هشام من بعده ، والصحيح أن الذي أتمه سليمان بن عبد الملك [٥٦] .

بعد عرضنا لنفقات بناء هذا المسجد الفخم ، لابد لنا من الإشارة إلى بعض أجزائه ومرافقه، ومنها أبوابه الأربعة ، وهي : باب البريد التي تقع في الجهة الغربية ، أما الباب الشمالي أو باب الكلاسة فيقع في الحائط الشمالي ، وهناك باب الفراديس ويعرف أيضاً بـ:باب العمارة ، ويتألف الباب الشرقي المعروف بـ:باب جيرون من ثلاثة مداخل مكسوة بالرخام والفسيفساء الزجاجية التي اشتهرت بها عمارة المسجد الأموي .

كان للمسجد مآذن أهمها منارة العروس التي تقع في منتصف الحائط الشمالي وتجاور باب العمارة الرئيسي ، ومازال الجزء الأسفل منها الذي شيد أيام الوليد باقياً ، ومقطع المنارة مربع ولها شرفة مسقوفة للمؤذنين ، وتعلوه شرفتان أخريان الواحدة فوق الأخرى ، السفلى مربعة الشكل والعليا مثمنة ،

وهذه تنتهي بشكل كروي ، وأصل المئذنة المعماري اقتباس عن منارة الإسكندرية التي شيدت أيام البطالسة (البطالمة) .

شيدت المنارتان الشرقية والغربية على أساسي الصومعتين القديمتين ، وجزؤهما الأسفل مربع التخطيط والأعلى مثمن ذو شرفتين الواحدة تلو الأخرى ، وقمتهما على شكل مخروط رفيع، وقد تخربت المنارة الغربية ثم جُددت فيما بعد .

أما أهم القباب فهي المعروفة بـ: قبة الخزنة التي كانت ذات شكل مثمن ، وترتفع على أعمدة ثمانية لها تيجان كورنثية ، وصُنعت رقبة القبة من الأحجار والآجر على التوالي ، كما زُخرفت بالفسيفساء ، وما تزال تشاهَد حتى الآن وتبرز عظمة الفن العربي ومهارة الصناع وعبقريتهم .

هنالك أيضاً العقود والأعمدة التي تتخللها الأواوين والأروقة ، فضلاً عن الزخارف التي تزين جدران الحرم الداخلي وأروقة الصحن من الداخل والخارج بالفسيفساء ، وتتمثل فيها عبقرية النحاة والرسامين والصباغين ، فقد أبدع النحاتون في زخرفة نوافذ المسجد ، وكسُيت جميع الأعمدة والدعامات المطلة على الصحن من الداخل والخارج بالرخام النادر ، وطـُعِمت بالفسيفساء المصنوعة من قطع الزجاج المكعب ، وكان قطر كل منها حوالي ٢سم ، وهي فريدة في صنعها وألوانها [٥٧] .

حرص الوليد أن يظهر مسجد دمشق بصورة تليق بمكانته السامية في نفوس المسلمين ، وتشهد بعظمة الفن الإسلامي الذي أبرزَ الدقة والإتقان والذوق في جمع الزجاج المذهب ووضعه في تناسق تام ، وفي صورة زخرفية رائعة وإتقان منقطع النظير نال إعجاب مؤرخي الفن والسواح[٥٨] ،وقيل انه اجتمع في ترخيمه اثنا عشر ألف مرخم ، وقيل كان فيه ستمائة سلسلة ذهب ، وذكر الرواة أن المسجد زُخرفَ بأنواع الزخرفة من الفصوص المذهبة والمرمر المصقول ، وتحت نسره عمودان مجزعان بالحمرة لم يُرَ مثلهما ، يقال أن الوليد اشتراهما بألف وخمسمائة دينار ، وفي المحراب عمودان صغيران يقال أنهما كانا في عرش بلقيس .

والواقع أن المبالغات التي ذكرتها المصادر القديمة تدل على إبداع هذا المسجد وعظمة بنائه ، فقيل انه بني بالحجر والكلس ، واتخذت له ثلاث منائر ، اثنتان في جناحي قبلته شرقاً وغرباً ، والثالثة في شماله عرفت بـ: العروس ، كما وُضِعت له أربعة أبواب [٥٩] ، وفـُصصت حوائط المسجد بالفسيفساء الرومي المذهب والملون بغرائب الأشجار والصباغة ، وفي قبلته ثلاثة أروقة في وسطها القبة المعروفة بـ: النسر ، وفـُرش المسجد بالمرمر ، أما أعمدته فكانت من الرخام الأبيض والمُجَزع والأحمر المنقط والأخضر المرشوش والأسود الغرابي والابقع والمعجون الأزرق ، ورُصع محرابه بالجواهر الثمينة ، وكان المسجد يُضاء بقناديل من الذهب والفضة [٦٠] .

وفي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز شكى النصارى إليه ما فعل الوليد بهم في كنيستهم ، فكتب إلى عامله يأمره بإعادة ما زاده في المسجد عليهم ، وقد كره أهل دمشق ذلك ، حول هدم مسجدهم بعد الأذان والصلاة فيه ثم إعادته للنصارى ، وكان في أهل دمشق سليمان بن حبيب المحاربي وغيره من الفقهاء ، الذين تفاهموا مع النصارى بان يعطوهم جميع كنائس غوطة دمشق التي أخذت بالقتال وصارت للمسلمين ، مقابل تركهم المطالبة بكنيسة يوحنا التي بني عليها مسجد دمشق ، فوافقوا على ذلك ، وكتب عامل دمشق إلى عمر بن عبد العزيز بذلك فأبدى ارتياحه وموافقته على ذلك [٦١] . ولعل الخليفة عمر أراد إرضاء النصارى انطلاقاً من سياسته الحكيمة في التعامل مع أهل الذمة بمرونة وتسامح ، وإلغاء فكرة اغتصاب كنيستهم وتحويلها إلى مسجد للمسلمين دون رضاهم ، فحقق كسب قناعتهم بهذا الأمر .

وقيل أن وفداً من الروم زار مسجد دمشق الجامع في خلافة عمر بن عبد العزيز ، ومن شدّة إعجاب رئيسهم بما شاهده من روعة البناء وفخامته وعظمته ، سقط مغشياً عليه ، ولما أفاق سألوه عن سبب ذلك ، فقال : ((إنا معشر أهل رومية نتحدث أن بقاء العرب قليل ، فلما رأيتُ ما بنوا علمتُ أن لهم مدة سيلقونها [كذا] ، فلذلك أصابني ما أصابني)) ، ولما وصل الكلام إلى مسامع الخليفة عمر ، الذي كان عازماً على قلع الفسيفساء والرخام ونزع السلاسل الذهبية لبيعها وإعادة ثمنها إلى بيت المال ، ترك

ما كان عازماً عليه [٦٢]. ونستنتج من هذه الحادثة عدة أمور ، أبرزها الإعجاب الكبير بعظمة هذا المسجد وفخامة بنائه الذي كان دليلاً شاخصاً على عظمة وقوة العرب والمسلمين ، وان الرجل الرومي دُهِش لما شاهده في هذا المسجد وسقط مغشياً عليه ؛ لان الروم كانوا يتوقعون قرب سقوط الدولة العربية ، لكن هذا البناء الشامخ كان دليلاً على استمرار بقاء قوتهم وهيبتهم ، والأمر الأخير أن الخليفة عمر بن عبد العزيز كان حريصاً على حفظ أموال المسلمين في بيت المال والمحافظة عليها للطوارئ والضرورات ، فأراد أن يزيل بعض المظاهر الزائدة عن الحاجة في المسجد مثل الفسيفساء والرخام (المرمر) ، وكذلك بيع السلاسل الذهبية التي كان عددها ستمائة سلسلة وإعادة أثمانها إلى بيت المال ، فقيل انه بعد هذه الحادثة ترك تلك الفكرة ؛ لإبقاء عظمة الجامع الأموي شاخصة للأنظار ودليلاً على عظمة العرب وقوتهم للتباهي أمام الأمم الأخرى مثل الروم .

على أننا وجدنا من جانب آخر رواية [٦٣] تشير إلى أن الخليفة عمر بن عبد العزيز ، بعد توليه الخلافة ، أمر بإعادة السلاسل الذهبية البالغ عددها ٦٠٠ سلسلة والتي صُنعت لتحمل القناديل ، والتي وُضعت في عهد سليمان بن عبد الملك الذي اكتمل بناء المسجد الجامع في عهده، وتم حفظ تلك السلاسل في بيت المال ، وأمر بوضع سلاسل من النحاس والحديد بدلاً منها . ولعل تفسير ذلك يؤكد حرص الخليفة على حفظ تلك السلاسل الذهبية خوفاً من سرقتها أو استبدالها ، وجعلها مالاً احتياطياً للدولة يُحفظ في خزينتها للإفادة منه عند الحاجة .

أثبتت الدراسات الأثرية التي قام بها أعلام رجال الآثار ، بطلان وخطأ مزاعم بعض مؤرخي الفنون ، من أن بيت الصلاة في المسجد الجامع الأموي بدمشق ، هو كنيسة القديس يوحنا التي قسمها المسلمون بينهم وبين المسيحيين بعد تحرير دمشق ، وان الوليد لم يشيد من المسجد إلا القبة والمئذنة الشمالية ، وعدا ذلك كان إصلاحات جزئية في بناء الكنيسة ، واثبت الاثاريون أمثال : كريزويل وسوقاجيه وستريجوفسكي وغيرهم ، أن المسجد الحالي بناء متجانس وان تخطيطه يخالف تخطيط الكنائس البيزنطية ، وأكدوا انه يرجع إلى عصر الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ، مع بعض الإضافات التي أضيفت إليه في العصور اللاحقة [٦٤].

أما بالنسبة إلى الجوانب الوظيفية التي أداها هذا المسجد الجامع فهي عديدة ، فإلى جانب دوره التعبدي والإرشادي من إقامة الصلاة والشعائر الدينية والوعظ والإرشاد الديني ، فانه ظل مناراً للعلم ومعهداً للدراسة وتحصيل علوم اللغة والدين منذ بنائه ، واتُخذ منتدىً للمسلمين يتلقون فيه أصول دينهم ويؤدون الصلاة فيه ، ويستمعون إلى أوامر الخلفاء وقراراتهم ، ومنه يُدعى المسلمون للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ، فصار مشعلاً للهداية والنور ، ومبعثاً للازدهار العلمي ، وحظي برعاية خاصة من الخلفاء والحكام على مر العصور تعظيماً لشأنه وتقديراً لمكانته في النفوس[٦٥].

وفي المساجد الإسلامية تعلم ونبغ الكثير من اللغويين والمفكرين والمؤرخين ، نذكر من تلك المساجد التي اشتهرت بحلقات العلم وأدت رسالتها التعليمية على أحسن وجه الجامع الأموي في دمشق[٦٦]، وقد أفاض المؤلفون بذكر الجوانب الوظيفية التي أدتها المساجد في الإسلام ودورها كمراكز للحضارة العربية الإسلامية [٦٧] .

ذكر ابن جبير(٦٨) أن في هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم كل يوم إثر صلاة الصبح ؛ لقراءة سبع من القرآن الكريم دائماً ، ومثله إثر صلاة العصر لقراءة تسمى : الكوثرية ، يقرأون فيها من سورة الكوثر إلى الخاتمة . وفيه حلقات لتدريس الطلبة ، وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي ، يجتمع فيها طلبة المغاربة .

وهكذا أنجز الوليد بن عبد الملك عدة انجازات رائعة وكبيرة خلال مدة خلافته ، فقد بنى أو أتم بناء المسجد الأقصى ، في الوقت الذي كان يبني فيه المسجد الأموي وقصر الخلافة في دمشق [٦٩] ، وسنشير إلى دوره في إكمال بناء المسجد الجامع في حلب لاحقاً .

وتجدر الإشارة إلى أن الطراز المعماري واللمسات الفنية من الزخرفة والألوان والتزويق وغيرها ، انتقلت إلى عمارة الجوامع الأخرى التي بنيت في العديد من المدن العربية والإسلامية، مما يؤكد تأثرها بما تم انجازه في الجامع الأموي في دمشق .

ذكر الأستاذ حوري ياسين [٧٠] أن زخرفة جامع القيروان في تونس تنسجم مع عمارة المساجد التي بدأت واستمرت طوال قرنين إلى أن تكاملت ، وهو يوضع ضمن طراز المسجد العربي النابع من طراز المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة ، كما انه تأثر بالجامع الأموي في دمشق ، في أن بلاطة القبلة الأفقية والرواق الأوسط العريضين نوعاً ما يعطيان عند تلاقيهما عند المحراب شكل حرف T ، مما يجعل ترتيب المُصلين في الجامع أشبه بطائر ، رأسه الإمام في المحراب ، وجناحاه جماعة المُصلين بالامتداد الأفقي على طول بلاطة المحراب عن يمين ويسار الإمام ، والجسد والذيل جماعة المُصلين بامتدادهم الرأسي على طول الرواق الأوسط أو القاطع العمودي على جدار القبلة وراء المحراب .

أشار د.سعد زغلول عبد الحميد [٧١] إلى أن مسجد الزيتونة في تونس يعد من نفس نمط جامع دمشق ، من حيث البناء بلونين مختلفين والحجارة المتبادلة من بيضاء وحمراء .

وذكر د.سعد زغلول أيضاً [٧٢] أن الدعائم التي تحمل العقود المزدوجة على مستويين في جامع مدينة قرطبة في الأندلس ، مستوحاة من جامع دمشق .

٣. المسجد الجامع في حلب :

تعد مدينة حلب في بلاد الشام واحدة من المدن القديمة في التاريخ ، إن لم تكن من أقدم المدن التي لا تضاهيها مدينة أو موضع آخر في تاريخها القديم وفي ديمومتها وبقائها حتى الوقت الحاضر كمدينة مزدهرة ومأهولة ، فهي من المدن الذاتية القديمة التي لم يؤسسها العرب المسلمون خلال الفتوحات العربية الإسلامية في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي [٧٣] .

وعندما حررت الجيوش العربية الإسلامية مدينة حلب سلماً ، وجد المسلمون مدينة عامرة ذات خطط ووحدات طبوغرافية منظمة ، كما أنها كانت مدينة مأهولة ، وتشير الروايات التاريخية إلى أن أهلها خافوا الجيوش العربية في بداية الأمر ، فتحصنوا في القلعة إلى أن طلبوا الصلح والأمان من أبي عبيدة بن الجراح ، فصالحَهم على أنفسهم وأولادهم وسوّرَ مدينتهم وكنائسهم ومنازلهم والحصن الذي في المدينة[٧٤] ، فهم في هذه الحالة أمام مدينة يونانية رومانية لا تتفق مخططاتها ووحداتها العمرانية اتفاقاً تاماً مع نظرتهم التمدنية في تخطيط المدن التي أسسوها كالبصرة والكوفة ، لذا ألزمتهم الضرورة بمرور الزمن إضافة خطط جديدة أو إجراء تعديل أو تجديد في خطط المدينة ووحداتها العمرانية ، لكن هذه الاختلافات لم تُغير من طبيعة المدينة القديمة [٧٥] .

بعد أن وافق أبا عبيدة على طلب أهالي حلب بالصلح ، دخلها من جهة باب أنطاكية ، ويعد هذا الباب من أبواب المدينة المهمة الذي يمثل الاتجاه (المنفذ) الجغرافي صوب مدينة أنطاكية ؛ لذا تعرضَ إلى عدة عمليات من البناء والتعمير والتجديد ، المهم أن القائد أبا عبيدة بعد أن دخل المدينة من هذا الباب بنى دونه المسجد الجامع ، وصار يعرف فيما بعد باسم: المسجد الغضائري نسبة إلى أحد الأولياء من أصحاب السري السقطي ، الذي قيل انه حجَّ ماشياً من حلب إلى مكة أربعين حجة [٧٦] .

حاول أحد المستشرقين [٧٧] أن يبرز الأثر الروماني في تشييد المسجد الجامع ، عندما أشار إلى أن هذا المسجد بُني في مدخل شارع الأعمدة الروماني ، وان العرب لم يقوموا بشيء مبتكر في بنائه ، إذ أنهم ابتنوا سوراً فقط بين هذه الأعمدة فحولوها إلى مكان مغلق وصار مسجداً.

والواقع أن هذه الحالة معروفة في اختيار العرب ـ في بداية دخولهم المدن الذاتية القديمة ـ لمواقع المساجد الجامعة في أماكن غير مُكلِفة ، أي لا تكلفهم وقتاً وعناءً في بناء جديد ؛ وذلك لأهمية فريضة الصلاة والصلاة الجامعة في المسجد ، بينما تتطلب عملية بناء مسجد جديد وقتاً طويلاً .

بقي مسجد أبي عبيدة هذا يؤدي دور المسجد الجامع ، إلى أن بُني المسجد الجامع الكبير في عهد الوليد بن عبد الملك ، أو سليمان بن عبد الملك [٧٨] .

وقد وُصِف جامع حلب الكبير بأنه كان معادِلاً للجامع الأموي في دمشق بجماله وفنه ، وخاصة بأحجاره المرمرية وفسيفسائه ، ويُظن أن سليمان بن عبد الملك بناه ؛ ليتشبه بأخيه الوليد الذي أنشأ جامع دمشق،ويظن آخرون أن الوليد نفسه هوالذي بنى الجامع الأموي في حلب [٧٩].ونرجح أن البناء تم في عهد الوليد الذي شهد نشاطاً متميزاً في هذا المجال .

بُني مسجد حلب في وسط المدينة ، ووُصف بأنه كان مسجداً كبيراً ، متين البناء كثير الأساطين ، فكان من أحسن الجوامع وأجملها [٨٠] ، غير أن أوصاف هذا المسجد الجامع جاءت في مراحل لاحقة متأخرة عن مرحلة دراستنا [٨١]. أوردناها لقلة معلوماتنا عنه خلال العصر الأموي ، فضلاً عن إظهار شهرته ومكانته في العصور التالية للعصر الأموي .

هوامش البحث وتعليقاته:

[١] إن قصة الإسراء والمعراج معروفة لدى المسلمين ومدونة في مصادرهم ، يُنظر مثلاً : ابن كثير ، عماد الدين إسماعيل بن عمر. البداية والنهاية في التاريخ ، ج٣،الطبعة الثالثة ، مكتبة المعارف ، (بيروت ، ١٩٧٨م) ، ص١١٥ .

[٢] سورة الإسراء ، آية : ١ .

[٣] البلاذري، أبو الحسن احمد بن يحيى بن جابر ، (ت : ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) . فتوح البلدان ، بإشراف لجنة تحقيق التراث ، منشورات مكتبة الهلال ، (بيروت ، ١٩٨٨م) ، ص١٤٠-١٤١، ابن عساكر ، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ج١، هذبه ورتبه الشيخ عبد القادر بدران ، دار المسيرة، (بيروت ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م) ، ص١٧٥- ١٧٦ ، فروخ ، د.عمر . تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ، دار العلم للملايين، (بيروت ، ١٩٧٠م) ، ص١٠٢ .

[٤] حتي ، فيليب . تاريخ العرب ، الطبعة الخامسة ، (بيروت ، ١٩٧٤م) ، ص٢٠٩ .

[٥] الطنطاوي ، علي وناجي ، أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر ، الطبعة الأولى ، مطابع دار الفكر ، (دمشق ، ١٩٥٩م) ، ص٩٣.

[٦] المقدسي ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن احمد بن أبي بكر ، (ت: ٣٨٠هـ / ٩٩٠م) . أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، علق عليه ووضع حواشيه : محمد أمين الضناوي ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، (بيروت ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م) ، ص١٤٦-١٤٧ . الزركشي ، محمد بن عبد الله . إعلام الساجد بأحكام المساجد ، (القاهرة ، ١٣٨٤هـ) ، ص٢٨٠-٢٨٣ ، سوسة ، د.احمد . مفصل العرب واليهود في التاريخ ، دار الحرية للطباعة ، (بغداد ، ١٩٨٤م) ، ص٧٢٩-٧٣٠ .

[٧] إعلام الساجد ص٢٧٧-٢٧٩ .

[٨] حوري ياسين . المسجد ص٨١ ، عن مخطط المسجد الأقصى ، يُنظر : سوسة . مفصل العرب واليهود ص٧٣٥ .

[٩] ابن عساكر . تهذيب تاريخ دمشق ج١/١٧٧ ، السيوطي . تاريخ الخلفاء ص١٣١-١٣٢ .

[١٠] د.لبيد إبراهيم احمد وآخرون . تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر الأموي ، (بغداد، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م) ، ص٢٨٧ ، ويذكر د.عواد الاعظمي أن الفرنج يسمون خطأً قبة الصخرة : مسجد عمر . تاريخ مدينة القدس ، دار الحرية للطباعة ، (بغداد ، ١٩٧٢م) ، ص٩٩ .

[١١] الحنبلي . الأنس الجليل ص١٨٢-١٨٣ .

[١٢] الحنبلي . الأنس الجليل ص٢٧٢ ، كرد علي ، محمد . خطط الشام ، ج١ ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٩م ، ص١١٠ ، الاعظمي . تاريخ مدينة القدس ص٩٩ .

[١٣] أبو المقدام رجاء بن حياة بن جود الكندي ، كان من العلماء الأعلام ومن جلساء عمر بن عبد العزيز . الحنبلي . الأنس الجليل ص٢٧٢ ، الاعظمي . تاريخ مدينة القدس ص١٠٠ .

[١٤] مولى بن عبد الملك بن مروان من أهل بيت المقدس . الحنبلي . الأنس الجليل ص٢٧٣ ، الاعظمي . تاريخ مدينة القدس ص١٠٠ .

[١٥] الحنبلي . الأنس الجليل ص٢٧٣ ، الاعظمي . تاريخ مدينة القدس ص١٠٠ .

[١٦] المصدر نفسه ص٢٧٣-٢٧٥ ، الاعظمي . تاريخ مدينة القدس ص١٠٠ .

[١٧] سيدة إسماعيل كاشف . الوليد بن عبد الملك ، (القاهرة ، ١٩٦٢م) ، ص٢٠٢ .

(١٨) محمد كرد علي . خطط الشام ج١/١١٧ .
(١٩) حوري ياسين حسين . المسجد ص٨٢ .
(٢٠) الحنبلي . الأنس الجليل ص٢٧٤ ، الاعظمي . تاريخ مدينة القدس ص١٠٤ .
(٢١) يُنظر عن هذا الوصف : ابن بطوطة ، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم . (ت: ٧٧٩هـ/١٣٧٧م). رحلة ابن بطوطة ، منشورات دار صادر ، الطبعة الأولى، (بيروت ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م) ، ص ٣٤ ، الحنبلي . الأنس الجليل ص٢٨٠ ، الاعظمي . تاريخ مدينة القدس ص١٠١-١٠٣.
وصف د.سعد زغلول عبد الحميد جامع قرطبة في بلاد الأندلس ، فذكر أن سقف الجامع المكون من الجملون الخشبي المغطى بالقرميد نموذجاً سابقاً في المسجد الأقصى .العمارة والفنون في دولة الإسلام ص٣٠٧-٣٠٨ .
(٢٢) كان الخدم من اليهود والنصارى ، ولم تُؤخذ منهم الجزية ، وتولوا عمل الحُصُر (جمع حصير) للمسجد وكنسها وكنس القناة التي تجري فيها الصهاريج . المقدسي . أحسن التقاسيم ص١٤٨، الحنبلي الأنس الجليل ص٢٨٦ ، الاعظمي . تاريخ مدينة القدس ص١٠٣ ، لبيد إبراهيم وآخرون . تاريخ الدولة العربية ص٢٨٨ .
(٢٣) ابن بطوطة . الرحلة ص٣٤-٣٥ ، لبيد إبراهيم وآخرون . تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر الأموي ص٢٨٧-٢٨٨ .
(٢٤) سيدة كاشف إسماعيل . الوليد بن عبد الملك ص٢٠٣ .
(٢٥) الحنبلي . الأنس الجليل ص٢٧٣ ، الاعظمي . تاريخ مدينة القدس ص١٠١ .
ذكر فيليب حتي أن الوليد بن عبد الملك أمر بنقل قبة نحاسية من كنيسة في بعلبك إلى المسجد الذي شيّده أبوه في بيت المقدس . تاريخ العرب ص٢٨٤ ، ولعله أراد بهذا تأكيد عدم عروبة الطراز المعماري لقبة الصخرة من جهة وإضفاء صفة السلب على المسلمين من جهة أخرى ، فضلاً عن التقليل من شأن هذا العمل والتضليل المبطن ضد المسلمين والإساءة إليهم.
(٢٦) الحنبلي . الأنس الجليل ص٢٨٢ ، الاعظمي . تاريخ مدينة القدس ص١٠١ .
(٢٧) المصدر نفسه ص٢٨٢ .
(٢٨) ابن بطوطة (ت: ٧٧٩هـ) . رحلة ابن بطوطة ص٣٤-٣٥ ، يُنظر أيضاً : د.سعد زغلول عبد الحميد . العمارة والفنون في دولة الإسلام ص٦٤ .
(٢٩) هنالك اختلافات عديدة حول كيفية تحرير دمشق وتحديد تاريخه بين سنتي ١٤ و١٥ هـ ، يُنظر عن ذلك : البلاذري . فتوح البلدان ص١٢٣-١٢٨ ، ابن عساكر . تهذيب تاريخ دمشق ج١/١٤٧-١٦٠ ، الذهبي ، احمد بن محمد . العبر في خبر من غبر ، ج١ ، تحقيق : صلاح الدين المنجد ، (الكويت ، ١٩٦٠م) ، ص١٧ ، حتي . تاريخ العرب ص٢٠٦ .
(٣٠) سيدة إسماعيل كاشف . الوليد بن عبد الملك ص١٩٦ ، محمد الحسيني عبد العزيز . الحياة العلمية في الدولة الإسلامية ص١٢١ .
(٣١) فتحت دمشق صلحاً وعنوة ، للتفصيل يُنظر : البلاذري . فتوح البلدان ص١٢٣-١٣٢ ، كاشف . الوليد بن عبد الملك ص١٩٦-١٩٧ ، الطنطاوي ، علي . الجامع الأموي في دمشق ، الطبعة الثانية ، (دمشق ، ١٩٦١م) ، ص٤٠ .
(٣٢) البلاذري . فتوح البلدان ص١٢٨ ، ابن عساكر . تهذيب تاريخ دمشق ج١/٢٠١ ، ابن بطوطة . الرحلة ص٥٢ .
(٣٣) محمد كرد علي . خطط الشام ١/١١١ ، فروخ . تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ص١٦٢ .
يُنظر عن هذه المقصورة : د.سعد زغلول عبد الحميد . العمارة والفنون في دولة الإسلام ص٢٧١-٢٧٣ .
(٣٤) محمد الحسيني . الحياة العلمية ص١٢١-١٢٢ .
(٣٥) محمد كرد علي . الإدارة الإسلامية في عز العرب ، مطبعة مصر ، (القاهرة ، ١٩٣٤م) ، ص٩٢ .
(٣٦) محمد الحسيني . المرجع السابق ص١٢٢ .
(٣٧) جون باجوت . إمبراطورية العرب ، تعريب وتعليق : خيري حماد ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٦، ص٣٠٣-٣٠٤ .
(٣٨) تهذيب تاريخ دمشق ج١/٢٠٠-٢٠١ ، ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن احمد الكناني الاندلسي ، (ت : ٦١٤هـ / ١٢١٧م) . رحلة ابن جبير ، المسماة : تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الأسفار ، منشورات دار التراث ، (بيروت ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م) ، ص٢١٢ . يُنظر أيضاً : الطنطاوي . الجامع الأموي في دمشق ص٤١ .
(٣٩) فتوح البلدان ص١٢٨ .
(٤٠) البلاذري . فتوح البلدان ص١٦٦ ، حتي . تاريخ العرب ص٢٠٧ .
(٤١) المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي . مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج٣ ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية/ صيدا وبيروت، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ص١٦٦، ابن عساكر. تهذيب تاريخ دمشق ج١/ ٢٠١.
(٤٢) اليافعي ، عبد الله بن اسعد بن علي . مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، ج٣ ، الطبعة الأولى ، ص١٧٨ . وهناك نص يؤرخ لبناء المسجد وهدم الكنيسة في شهر ذي القعدة سنة ٨٦هـ . ابن عساكر . تهذيب تاريخ دمشق ج١ / ٢٠٧ ، محمد الحسيني . الحياة العلمية ص١٢٢ .

(٤٣) كاشف . الوليد بن عبد الملك ص١٩٧ ، وأوردت كتب تتعلق بتحديد أجر أحد العمال الذين سيرسلون للعمل بجامع دمشق لمدة ستة اشهر ، وكتاباً آخر يتعلق بالنفقة على أربعين عاملاً ماهراً استخدموا في بناء الجامع أيضاً .

(٤٤) تهذيب تاريخ دمشق ج١ / ٢٠٣ ، يُنظر أيضاً : كاشف . الوليد بن عبد الملك ص١٩٧ .
يُنظر عن العمال من الفرس والهنود والمهندسين الروم : حتي . تاريخ العرب ص٣٣٠ .

(٤٥) كاشف . الوليد بن عبد الملك ص١٩٦ .

(٤٦) اليافعي . مرآة الجنان ٣ / ١٧٨ ، وذكر انه عمل فيه اثنا عشر ألف صانع .

(٤٧) كاشف . الوليد بن عبد الملك ص١٩٧ .

(٤٨) تهذيب تاريخ دمشق ج١/ ٢٠١ .

(٤٩) كان باب كنيسة توما قبلة المسجد موضع المحراب الذي يُصلى فيه . تهذيب تاريخ دمشق ج١ / ٢٠٠ .

(٥٠) محمد الحسيني . الحياة العلمية ص١٢٢-١٢٣ ، كاشف . الوليد بن عبد الملك ص٢٠١ .

(٥١) يُنظر : ابن عساكر . تهذيب تاريخ دمشق ج١ / ١٩٧-٢٠٠ ، ابن جبير . الرحلة ص٢١٢-٢١٩ ، محمد الحسيني . الحياة العلمية ص١٢١-١٢٦ ، كاشف . الوليد بن عبد الملك ص١٩٦-٢٠١ ، الطنطاوي . الجامع الأموي في دمشق ص٤٠-٥٠ ، د.سعد زغلول عبد الحميد . العمارة والفنون ص٢٧٦-٢٨٠ .

(٥٢) ابن عساكر . تهذيب تاريخ دمشق ج١ / ٢٠٠ .

(٥٣) فروخ . تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ص١٦٢-١٦٣ .

(٥٤) ابن عساكر . تهذيب تاريخ دمشق ج١ / ٢٠٧ (وقيل في رواية في كل صندوق أربعة عشر ألف دينار) ،ابن جبير . الرحلة ص٢١١ ، كاشف . الوليد بن عبد الملك ص١٩٨ .

(٥٥) يُنظر عن تفاصيل ووصف مسجد دمشق : ابن بطوطة . الرحلة ص٥٣-٥٥ ، سيدة إسماعيل كاشف . الوليد بن عبد الملك ص٢٠٠ . وكان المشرف على صرف الأموال عمر بن عبد العزيز . المسعودي . مروج الذهب ج١٦٦/٣ .

(٥٦) ابن عساكر . تهذيب تاريخ دمشق ج٢٠١/١ ، وذكر (ص٢٠٥) إن البناء تم في عهد الوليد وأمر أن يسقف المسجد بالرصاص .

(٥٧) المقدسي . أحسن التقاسيم ص١٤٠-١٤١ ، يُنظر للتفصيل : محمد الحسيني عبد العزيز . الحياة العلمية ص١٢٣-١٢٦ .

(٥٨) محمد الحسيني . الحياة العلمية ص١٢٥-١٢٦ .

(٥٩) أصبحت الأبواب ستة فيما بعد ، أي ستة مداخل للجامع الأموي . يُنظر : الطنطاوي . الجامع الأموي في دمشق ص٢٩-٣٠ .

(٦٠) ابن جبير . الرحلة ص٢١١ ، كاشف . الوليد بن عبد الملك ص١٩٨-١٩٩ ، يُنظر عن قصة بناء قبة النسر : ابن عساكر . تهذيب تاريخ دمشق ج٢٠٤/١-٢٠٥ .

(٦١) البلاذري . فتوح البلدان ص١٢٨ .

(٦٢) ابن عساكر . تهذيب تاريخ دمشق ج٢١١/١ ، كاشف . الوليد بن عبد الملك ص١٩٩-٢٠٠ .

(٦٣) القرماني ، أبو العباس أحمد بن يوسف . أخبار الدول وآثار الأوَل،عالم الكتب ، (بيروت، ١٩٧٨) ، ص٥٢ .

(٦٤) كاشف . الوليد ص٢٠١ ، يُنظر أيضاً : حتي . تاريخ العرب ص٣٢٩-٣٣٠ .

(٦٥) محمد الحسيني عبد العزيز . الحياة العلمية ص١٢٢ . ابن جبير . الرحلة ص٢٢٠ ، وذكر ابن بطوطة أن المسجد الجامع في دمشق اتُخذ مكاناً لعقد حلقات الدرس من قبل المُحدّثين والمُعلمين لتعليم الخط وقراءة القرآن الكريم . رحلة ابن بطوطة ص٩٣-٩٤ .

(٦٦) د.حسين أمين . المساجد الإسلامية وأثرها في نشر التعليم ، مجلة الأستاذ ، المجلد الثاني عشر ، (بغداد ، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م) ، ص١٠٢ ، وذكر (ص١٠٤) أن الإمام الغزالي بدأ في تصنيف كتابه المشهور (إحياء علوم الدين) في بيت المقدس وأتمه في جامع دمشق .

(٦٧) يُنظر : شلبي.تاريخ التربية الإسلامية ص٨٩-٩٠،الخربوطلي.العرب والحضارة ص١٥٠-١٦٠،طلس. التربية والتعليم في الإسلام ص٥٤-٦٧ ، سعد مرسي احمد وسعيد إسماعيل علي . تاريخ التربية والتعليم ص٢٢٩-٢٣٣ ، الطنطاوي . الجامع الأموي في دمشق ص١٧-٢١ .

(٦٨) الرحلة ص٢٢٠ .

(٦٩) كاشف . الوليد بن عبد الملك ص٢٠٣ .

(٧٠) المسجد ص١٢٨-١٢٩ .

(٧١) العمارة والفنون في دولة الإسلام ص٣٠١ .

(٧٢) المرجع نفسه ص٣٠٨ .

(٧٣) ناجي، د.عبد الجبار . دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية ص ٣٠٧ .

(٧٤) البلاذري. فتوح البلدان ص ١٤٧-١٤٨ ،واستثنى عليهم موضع المسجد،وكان الذي صالحهم عليه عياض بن غنم.

(٧٥) ناجي . دراسات ص ٣١٤ .

(٧٦) البلاذري . فتوح البلدان ص١٤٨ ، ابن الأثير . اللباب في معرفة الأنساب ج ٢ / ١٧٤ ، ابن العديم . زبدة الحلب ص ٢٧ـ٢٨ ، ناجي . دراسات ص ٣١٥

(٧٧) سوڤاجيه (مقالة حلب في دائرة المعارف الإسلامية) طبعة جديدة ، نقلاً عن : ناجي. دراسات ص ٣١٥ .

(٧٨) ناجي . دراسات ص ٣١٥ .

(٧٩) كاشف ، سيدة إسماعيل . الوليد بن عبد الملك ص٢٠٢ .

(٨٠) ناجي . دراسات ص٣١٦ .

(٨١) وصف ابن جبير هذا المسجد ، بقوله : ((وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها ، وقد أطاف بصحنه الواسع بلاط متسع مفتح كله أبوابا قصرية الحُسن إلى الصحن ، عددها ينيف على الخمسين باباً ، فيستوقف الأبصار حُسن منظرها ، وفي صحنه بئران معينان ، والبلاط القبلي لا مقصورة فيه فجاء ظاهر الإتساع رائق الإنشراح)) . رحلة ابن جبير ص٢٠٤ ، راجع ايضاً : ناجي . دراسات ص٣١٦ .

وقد انبهر ابن جبير من بناء هذا المسجد وزخرفته ، فقال : ((وقد استفرغت الصنعة القرنصية جهدها في منبره ، فما أرى في بلدٍ من البلاد منبراً على شكله وغرابة صنعته ، واتصلت الصنعة الخشبية منه إلى المحراب فتجللت صفحاته كلها حُسناً على تلك الصفة الغريبة ، وارتفع كالتاج العظيم على المحراب وعلا حتى اتصل بسُمك السقف ، وقد قُوس أعلاه وشُرف بالشُرف الخشبية القرنصية ، وهو مرصع كله بالعاج والأبنوس ، واتصال الترصيع من المنبر إلى المحراب مع ما يليهما من جدار القبلة دون أن يتبين بينهما انفصال ، فتجتلي العيون منه أبدع منظر يكون في الدنيا)) . رحلة ابن جبير ص٢٠٤ .

وقد تأسست في القرن الرابع الهجري مدرسة إلى جانب هذا المسجد الجامع ، وصفها الرحالة ابن جبير بأنها كانت تتصل بالمسجد من ناحية الغرب ، وهي مدرسة تناسب الجامع حُسناً وإتقان صُنعة فهُما في الحُسن روضة تجاور أخرى ، وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناءً وغرابة صُنعة . رحلة ابن جبير ص٢٠٤ ، يُنظر أيضاً : ناجي . دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية ص٣١٦-٣١٧ .